الضعف اللغوي في شبكات التواصل الاجتماعي وتأثيره على الهوية اللغوية في العالم العربي

د. حسن مالك

جامعة محمد الخامس - المدرسة العليا للأساتذة/

الرباط - المغرب

مستخلص

تعتمد شبكات التواصل الاجتماعي على التواصل بين مجموعة من الأفراد لهم نفس الميول والاهتمامات والهوايات وفق نظام اجتماعي إلكتروني، والهدف من هذه الشبكات هو التواصل و تبادل الآراء والأفكار والتقدم بمقترحات وحلول للمشكلات التي تواجه المشتركين في الحوار، في عصر يموج بالتغيرات العالمية المعاصرة؛ عصر العولمة وتكنولوجيا المعلومات والتواصل، الذي أثر تأثيرا كبيرا في المجتمعات الإنسانية من حيث لغاتها وثقافاتها وهوياتها وأنساقها القيمية السائدة.

في ضوء هذا التصور يمكن الحديث عن التأثير الكبير الذي تمارسه شبكات التواصل الاجتماعي على المنظومة اللغوية والهوياتية للشعوب العربية، في سياق تعزيز القيم العولمية الجديدة .حيث إن الضعف اللغوي والاضطراب الهوياتي الذي نلاحظه عند مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي؛ وخصوصا عند فئة الشباب، تعد دليلا واضحا على وجود تأثير سلبي لهذه الشبكات على لغة وثقافة وهوية المجتمعات العربية.

تسعى هذه الورقة البحثية أساسا إلى دراسة تأثير الضعف اللغوي في شبكات التواصل الاجتماعي على الهوية اللغوية للفرد العربي في ظل الفجوة الرقمية واللغوية والمعرفية والتعليمية الكبيرة التي تعاني منها الدول العربية، وفي ظل التطورات التقنية الهائلة للتطبيقات المتنوعة لوسائل الاتصال والتواصل الاجتماعي، سواء عبر أجهزة الحاسوب، أو عبر الهواتف النقالة بأجيالها المتعاقبة القادرة على تصفح مواقع الشبكات الاجتماعية، والتي تستفيد من أحدث تطبيقات الاتصال والتواصل عبر الإنترنت المعتمدة أساسا على الصور والإشارات والنصوص اللغوية المرئية والشاشات الإلكترونية الدائمة البث .ولعل أخطر النتائج المترتبة عن ذلك تلك المتصلة بمخاطر الاستلاب اللغوي والثقافي والخوف من الانشطار الهوياتي أو فقدان الهوية الأصلية لدى كثير من الشعوب العربية.

إن اللغة – خصوصا إذا تعلق الأمر باللغة الوطنية أو القومية – ليست مجرد آلية تواصلية، بل هي نظام من العلامات والرموز الدالة على الفكر، أي أنها تعكس الانجازات الفكرية والثقافية لمتكلميها، وبصيغة أدق؛ اللغة هي الصورة التي يتمثل فيها تفكير الأمة ورؤيتها للعالم والوجود، ولذا لم يكن يتصور وجود الإنسان بدون كلام، إذ بين الوجود والعدم الكلام . فاللغة هي الهوية الوجودية قبل الجماعية .واللغة كذلك هي قدرة تمكن من الإبداع وحمل المعرفة وانتاجها..، لذا ينتظر من كل متكلم طبيعي للغته أن يبدع بها ويحملها معارف مختلفة حتى تصير لغة المعرفة .وتحميل اللغة بالمعرفة أساس بناء المجتمع، كما أن بناء هذا المجتمع يهيئ اللغة لتضطلع بوظائفها كاملة، وتساهم في تنمية الإنسان لغويا وتواصليا ومعرفيا.

ومن خلال إسقاط هذا التصور على واقع اللغة العربية في الفضاء المعلوماتي وفي شبكات التواصل الاجتماعي، وارتباطا بسؤال الهوية بما تمثله من تميز وانتماء واختلاف أيضا، وارتباطا كذلك ببعض المقولات التي تلخص طبيعة العلاقة بين اللغة والهوية؛ من قبيل" : لغتي هي عالمي، وحدود لغتي هي حدود عالمي"، و"هويتي هي ما يجعلني غير متماثل مع الآخر"، و "اللغة هي الذات وهي الهوية "و"ثقافة كل أمة كامنة في لغتها"، يتبادر إلى ذهننا سؤالان رئيسان هما: ما موقع اللغة والهوية العربية ضمن منظومة تكنولوجيا المعلومات والتواصل الحديثة؟ وما أشكال وحدود تأثير الضعف اللغوي في شبكات التواصل الاجتماعي على الهوية اللغوية للفرد العربي؟

إن وجود لغة عربية متطورة وقوية يمكن أن يشكل جسرا للتواصل وتوحيد المفاهيم بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، كما يمكن أن يكون جسرا لنقل التكنولوجيا والثقافة المعلوماتية وتوطينها في التربة العربية . فهناك قاعدة تقول أن كل من يقوم بتسويق لغته بفعالية أكبر لن يواجه صعوبة في تس ويق منتجاته وثقافته. أما إذا بقيت اللغة العربية ضعيفة، عاجزة عن التطور، عاجزة عن الانخراط في منظومة تكنولوجيا المعلومات والتواصل، فإنها ستكون هي ذاتها عائقا أمام اللحاق بركب المعرفة الإنسانية، وأمام تنمية الحوار الثقافي والحضاري العالمي، وحاجزا اجتماعيا للتواصل بين الأفراد والجماعات.

المقدمة

تعتمد شبكات التواصل الاجتماعي على التواصل بين مجموعة من الأفراد لهم نفس الميول والاهتمامات والهوايات وفق نظام اجتماعي إلكتروني، والهدف من هذه الشبكات هو التواصل و تبادل الآراء والأفكار والتقدم بمقترحات وحلول للمشكلات التي تواجه المشتركين في الحوار، في عصر يموج بالتغيرات العالمية المعاصرة؛ عصر العولمة وتكنولوجيا المعلومات والتواصل، الذي أثر تأثيرا كبيرا في المجتمعات الإنسانية من حيث لغاتها وثقافاتها وهوياتها وأنساقها القيمية السائدة.

في ضوء هذا التصور يمكن الحديث عن التأثير الكبير الذي تمارسه شبكات التواصل الاجتماعي على المنظومة اللغوية والهوياتية للشعوب العربية، في سياق تعزيز القيم العولمية الجديدة. حيث إن الضعف اللغوي والاضطراب الهوياتي الذي نلاحظه عند مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي؛ وخصوصا عند فئة الشباب، تعد دليلا واضحا على وجود تأثير سلبي لهذه الشبكات على لغة وثقافة وهوية المجتمعات العربية.

تسعى هذه الورقة البحثية أساسا إلى دراسة تأثير الضعف اللغوي في شبكات التواصل الاجتماعي على الهوية اللغوية للفرد العربي في ظل الفجوة الرقمية واللغوية والمعرفية والتعليمية الكبيرة التي تعاني منها الدول العربية، وفي ظل التطورات التقنية الهائلة للتطبيقات المتنوعة لوسائل الاتصال والتواصل الاجتماعي، سواء عبر أجهزة الحاسوب، أو عبر الهواتف النقالة بأجيالها المتعاقبة القادرة على تصفح مواقع الشبكات الاجتماعية، والتي تستفيد من أحدث تطبيقات الاتصال والتواصل عبر الإنترنيت المعتمدة أساسا على الصور والإشارات والنصوص اللغوية المرئية والشاشات الإلكترونية الدائمة البث. ولعل أخطر النتائج المترتبة عن ذلك تلك المتصلة بمخاطر الاستلاب اللغوي والثقافي والخوف من الانشطار الهوياتي أو فقدان الهوية الأصلية لدى كثير من الشعوب العربية.

إن اللغة – خصوصا إذا تعلق الأمر باللغة الوطنية أو القومية – ليست مجرد آلية تواصلية، بل هي نظام من العلامات والرموز الدالة على الفكر، أي أنها تعكس الإنجازات الفكرية والثقافية لمتكلميها، وبصيغة أدق؛ اللغة هي الصورة التي يتمثل فيها تفكير الأمة ورؤيتها للعالم والوجود. فاللغة هي الهوية الوجودية قبل الجماعية. واللغة كذلك هي قدرة تمكن من

الإبداع وحمل المعرفة وإنتاجها..، لذا ينتظر من كل متكلم طبيعي للغته أن يبدع بها ويحملها معارف مختلفة حتى تصير لغة المعرفة. وتحميل اللغة بالمعرفة أساس بناء المجتمع؛ لغويا وتواصليا ومعرفيا.

ومن خلال إسقاط هذا التصور على واقع اللغة العربية في الفضاء المعلوماتي وفي شبكات التواصل الاجتماعي، وارتباطا بسؤال الهوية بما تمثله من تميز وانتماء واختلاف أيضا، وارتباطا كذلك ببعض المقولات التي تلخص طبيعة العلاقة بين اللغة والهوية؛ من قبيل: "لغتي هي عالمي، وحدود لغتي هي حدود عالمي"، و"هويتي هي ما يجعلني غير متماثل مع الآخر"، و" اللغة هي الذات وهي الهوية" و"ثقافة كل أمة كامنة في لغتها"، يتبادر إلى ذهننا سؤالان رئيسان هما:

ما موقع اللغة والهوية العربية ضمن منظومة تكنولوجيا المعلومات والتواصل الحديثة؟ وما أشكال وحدود تأثير الضعف اللغوي في شبكات التواصل الاجتماعي على الهوية اللغوية للفرد العربي؟

إن وجود لغة عربية متطورة وقوية يمكن أن يشكل جسرا للتواصل وتوحيد المفاهيم بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، كما يمكن أن يكون جسرا لنقل التكنولوجيا والثقافة المعلوماتية وتوطينها في التربة العربية. فهناك قاعدة تقول أن كل من يقوم بتسويق لغته بفعالية أكبر لن يواجه صعوبة في تسويق منتجاته وثقافته. أما إذا بقيت اللغة العربية ضعيفة، عاجزة عن التطور، عاجزة عن الانخراط في منظومة تكنولوجيا المعلومات والتواصل، فإنها ستكون هي ذاتها عائقا أمام اللحاق بركب المعرفة الإنسانية، وأمام تنمية الحوار الثقافي والحضاري العالمي، وحاجزا اجتماعيا للتواصل بين الأفراد والجماعات.

١- شبكات التواصل الاجتماعي وفجوة استخدام اللغة العربية

تعتمد شبكات التواصل الاجتماعي على التواصل بين مجموعة من الأفراد لهم نفس الميول والاهتمامات والهوايات وفق نظام اجتماعي إلكتروني، والهدف من هذه الشبكات هو التواصل وتبادل الآراء والأفكار والتقدم بمقترحات وحلول للمشكلات التي تواجه المشتركين في الحوار، في عصر يموج بالتغيرات العالمية المعاصرة؛ عصر العولمة وتكنولوجيا المعلومات

والتواصل، الذي أثر تأثيرا كبيرا في المجتمعات الإنسانية من حيث لغاتها وثقافاتها وهوياتها وأنساقها القيمية السائدة.

في ضوء هذا التصور يمكن الحديث عن التأثير الكبير الذي تمارسه شبكات التواصل الاجتماعي على المنظومة اللغوية والهوياتية للشعوب العربية، في سياق تعزيز القيم العولمية الجديدة. حيث إن الضعف والتردي اللغوي والاضطراب والاختلال الهوياتي الذي نلاحظه عند مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي؛ وخصوصا عند فئة الشباب، تعد دليلا واضحا على وجود تأثير سلبي لهذه الشبكات على لغة وثقافة وهوية المجتمعات العربية.

تعيش الدول العربية مرحلة تاريخية تطبعها ظرفية عالمية سريعة التطور، تبلورت آثارها في تشكيل مجتمع العلم والمعرفة والانفتاح في ظل ثورة تكنولوجيا المعلومات والتواصل وإكراهات العولمة خصوصا في شقها الثقافي واللغوي. مما يطرح عدة تساؤلات حول المرجعيات الثقافية واللغوية الكبرى لهذه الدول، الشيء الذي ينعكس على وضع المنظومة اللغوية والهوياتية التي تعيش أزمة تتجلى في وضع لغوي مضطرب وممزق بين مطلب الهوية القومية والهوية الوطنية من جهة، وإكراهات العولمة والانفتاح والوظيفة البراغماتية التي فرضتها الثورة التكنولوجية والمعلوماتية؛ والتي يعد الانتشار الكبير لشبكات التواصل الاجتماعي أحد أهم تجلياتها، من جهة ثانية. كل هذا يهدد الأمن اللغوي للفرد العربي، ويكرس وضع الاستلاب اللغوي والحضاري ويساهم في اضطراب الهوية وانتكاسة مفهوم الثقافة الوطنية لديه.

لقد شهد الفضاء الرقمي منذ بداية عقد التسعينات من القرن الماضي تطورات تكنولوجية كبيرة، أحدثت نقلة نوعية وثورة حقيقية في عالم التواصل. هذه الثورة خلقت نوعا من التواصل الاجتماعي بين البشر في فضاء إلكتروني افتراضي، قرب المسافات بين الشعوب وألغى الحدود وزاوج بين الثقافات، وسمي هذا النوع من التواصل بين الناس " شبكات التواصل الاجتماعي".

تعددت هذه الشبكات واستأثرت بجمهور واسع من المتلقين، ولعبت الأحداث السياسية التي عرفتها مجموعة من الدول العربية دورا مهما في بروز هذه الشبكات على الواجهة التواصلية والتفاعلية لدى الفرد العربي، حيث كان لها الفضل في إيصال الأخبار السريعة والرسائل النصية ومقاطع الفيديو عن تلك الأحداث، الأمر الذي ساهم في شهرة وانتشار هذه الشبكات وخصوصا: الفيس بوك وتويتر واليوتيوب... وأصبحت جزءا من حياة الفرد والمجتمع

على مختلف المستويات؛ الشخصية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، واللغوية، والثقافية. وانقسمت الآراء حولها وتعددت، بين معارض لها بحجة تأثيراتها السلبية على النسق القيمي والأخلاقي والاجتماعي وكذا اللغوي والهوياتي للفرد العربي، وبين مرحب بها بحكم أنها أصبحت ضرورية وأساسية لمواكبة تطورات العصر وما تفرضه العولمة من مستجدات على المستويات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية واللغوية والثقافية.

إن شبكات التواصل الاجتماعي على الإنترنيت شكلت ثورة في مجال التواصل بين الأفراد، ونقلتهم من مجرد متلقين غير متفاعلين إلى متلقين فاعلين ومشاركين في الخدمات والتطبيقات، ومن التركيز على المحتويات مسبقة الإعداد إلى التركيز على وسائط تفاعلية يتم إنتاجها من قبل المستخدمين ويشاركونها مع الآخرين. كما أدت أيضا إلى سرعة تبادل المعلومات المنشورة والمدونة من خلال توفير طرق عدة ومتنوعة للتفاعل وتبادل الأفكار والآراء والتجارب، سواء عن طريق المحادثة أو المراسلة أو عن طريق البريد الإلكتروني[١].

لقد خلق الإنترنيت إذا، من خلال دمجه بين الكمبيوتر والهواتف الذكية.. من جهة، وبين مصادر المعلومات وشبكات التواصل من جهة أخرى، واقعا جديدا في مجال التواصل، سواء فيما يخص علاقة المرسل بالمستقبل أو علاقة قناة التراسل بالرسالة. حيث إن التطبيقات المختلفة لشبكات التواصل الاجتماعي لا تسمح فقط باشتراك نوعيات الرسائل المختلفة التي تستخدم قنوات الإنترنيت كوسيط، بل تسمح بالتفاعل بينها بصورة دينامية من خلال التعامل الذكي مع مضمون هذه الرسائل، كما تسمح بكسر الحواجز بين التواصل الفردي والتواصل الجماعي، حيث يمكن للفرد أن يرسل أو يحول رسالة عبر البريد الإلكتروني إلى مجموعة من الأفراد، أو يبث رسالته الإعلامية عبر وسائل وتطبيقات شبكات التواصل الاجتماعي المختلفة إلى أصدقاء محددين، أو إلى جهات ومجموعات مهنية أو علمية معينة، أو إلى عموم متصفحي مواقع التواصل الاجتماعي المتاحة للجميع على شبكة الإنترنيت.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الإطار هو: هل تملك الدول العربية رؤية لغوية ومعرفية من جهة، ومعلوماتية وتكنولوجية من جهة ثانية، تمكنها من مجاراة هذا التطور السريع والانتشار الواسع الذي تعرفه شبكات التواصل الاجتماعي؟ بمعنى آخر هل يسمح الوضع اللغوي والتكنولوجي للدول العربية بردم الهوة الفاصلة بينها وبين الدول المتقدمة في مجال النفاذ إلى

مصادر المعلومات والمعرفة والقدرة على استغلالها، بما يضمن ضبط توجهات شبكات التواصل الاجتماعي وتقنين مسارها من جهة، وتزويدها بالمحتوى اللغوي والمعرفي والمعلوماتي المناسب للحفاظ على خصوصيات ومكانة اللغة العربية من جهة، وخصوصيات المجتمع العربي الثقافية والاجتماعية والهوياتية من جهة ثانية؟ خصوصا وأن الفجوة اللغوية والرقمية والمعرفية والتكنولوجية التي تعاني منها الدول العربية مقارنة بالدول المتقدمة كبيرة جدا، لاعتبارات متعددة أبرزها؛ سرعة التطور التكنولوجي على الصعيد العالمي، وتنامي الاحتكار المعلوماتي من قبل الدول المتقدمة، وشدة الاندماج المعرفي بين تكنولوجيا المعلومات والتكنولوجيا الدقيقة المرتبطة بالصناعات الحيوية المختلفة، وارتفاع كلفة توطين تكنولوجيا المعلومات والتواصل، وهيمنة اللغات الأجنبية؛ وتحديدا الإنجليزية على الفضاءين العلمي والتداولي عالميا.

يرى "نبيل علي" و"نادية حجازي" في كتابهما "الفجوة الرقمية؛ رؤية عربية لمجتمع المعرفة"، أن هناك مجموعة من الأسباب وراء الفجوة الرقمية التي تعاني منها الدول العربية منها ماهو تكنولوجي مثل: سرعة التطور التكنولوجي وسرعة تطور شبكات التواصل الاجتماعي بفضل النقلة الرقمية أساسا، وتنامي الاحتكار التكنولوجي؛ مثل: احتكار العتاد واحتكار البرمجيات من قبل الدول المتقدمة. ومنها ماهو اقتصادي مثل: ارتفاع كلفة توطين تكنولوجيا المعلومات، وكلفة الملكية الفكرية، وانحياز التكنولوجيا اقتصاديا إلى الدول الأكثر تقدما والأكثر استخداما لها. ومنها ماهو سياسي؛ مثل: صعوبة وضع سياسات التنمية المعلوماتية، وسيطرة الولايات المتحدة الأمريكية تحديدا على المحيط الجيومعلوماتي خاصة فيما يتعلق بالإنترنيت. ومنها ماهو اجتماعي وثقافي؛ حيث استطاعت تكنولوجيا المعلومات والتواصل أن تنفذ إلى مستويات عميقة من عقل الإنسان ووجدانه ومجتمعه، وهي تحمل مع انتقالها من البلدان المصدرة لها، قدرا كبيرا من ثقافة هذه البلدان ونمط اقتصادها ومنظومة قيمها.. وهو الأمر الذي ينشأ عنه العديد من أوجه الصدام مع واقع البلدان المستوردة لتلك التكنولوجيا الوافدة إليها من بيئة اجتماعية مغايرة، وقد تنامى دور العوامل الاجتماعية والثقافية واللغوية للتنمية المعلوماتية، خاصة مع توجهاتها الحديثة للتوجه صوب عامة الجمهور، لتتعدد بالتالي الأسباب الاجتماعية والثقافية واللغوية للفجوة الرقمية للبلدان العربية والتي من أبرزها: تدني التعليم وعدم

توافر فرص التعلم، والأمية، والفجوة اللغوية، وانعدام إرادة التغيير لدى المجتمعات العربية، وغياب الثقافة العلمية – التكنولوجية بصفة عامة(٢).

أما بخصوص الفجوة اللغوية التي تعاني منها المجتمعات العربية، فإنه يمكن القول بأن اللغة العربية تواجه – إزاء النقلة النوعية الحادة لمجتمع المعرفة – تحديا مزدوجا، فهي تواجه معظم التحديات اللسانية والسوسيولسانية التي تواجهها لغات العالم الأخرى، وفي الوقت ذاته تعاني أزمة حادة وضعفا بينا على مستوى التنظير والبحث المعجمي والتعليم والوظيفية والرقمنة، وقد أظهرت الإنترنيت وشبكات التواصل الاجتماعي؛ سواء على صعيد البحث أو البث، مدى حدة هذه الأزمة التي تفرض القيام بالإصلاح اللغوي المطلوب بأقصى سرعة ممكنة حتى لا تتسع الفجوة اللغوية التي تفصل بين العربية ولغات العالم المتقدم، خصوصا الإنجليزية التي أصبحت تهيمن على الخريطة الجيولسانية العالمية، مما زاد من القلق على اللغة العربية من خطر الاستقطاب اللغوي، حيث تستخدم قوى الجذب اللغوي لاستقطاب لغات شعوب العالم الثالث نحو قطب لغوي وحيد يعمل على تهميش اللغات والثقافات المحلية وهو ما يفضي إلى تآكل التنوع والتعدد اللغوي لصالح لغة أجنبية واحدة مهيمنة، تمهيدا لنوع من الاستئصال الثقافي والهوياتي .

لذلك علينا أن ندرك أنه بدون لغة عربية متطورة وقوية لا يمكن مواجهة المد المعلوماتي الجارف بسبب هيمنة اللغة الإنجليزية، وهذا ما يتطلب اتخاذ مواقف صريحة وواضحة إزاء الكثير من القضايا اللغوية التي عجزنا عن حسمها حتى الآن من قبيل: ازدواجية الفصحى والعامية، وتعريب التعليم، وثنائية أو تعددية استخدام اللغة العربية بالتوازي مع اللغات الأجنبية؛ وتحديدا الإنجليزية في بعض الدول العربية والفرنسية في دول عربية أخرى. وكيفية تعليم ونشر اللغة العربية سواء للناطقين بها أو للناطقين بغيرها، ويمكن أن نضيف إلى هذه القضايا؛ الجدل الذي باتت تثيره الأبجدية وأسلوب الكتابة الجديد، والأشكال والرموز اللغوية والتعبيرية المستحدثة، التي فرضت نفسها على المشهد اللغوي العربي من خلال شبكات التواصل الاجتماعي والتي ساهت بشكل كبير في تردي وضع اللغة العربية بصفة عامة.

لاشك أن التحديات العلمية والتكنولوجية التي يواجهها عالمنا العربي إزاء ظاهرة شبكات التواصل الاجتماعي، لا تفوقها جسامة إلا تلك التحديات اللغوية والثقافية المصاحبة لها. فهذه

الشبكات تمثل تحديا كبيرا لنا، سواء فيما يخص مضمون رسائلنا اللغوية والثقافية، أو فيما يخص قيمة تراثنا الفكري المهدد بالتهميش والانحسار، أو فيما يخص فاعلية مؤسساتنا اللغوية والثقافية والتعليمية.

وتعد اللغة العربية قطب الرحى وسط هذه التحديات، فبدون تأهيل لهذه اللغة على مستوى المتن والوظيفة، وبدون تجاوز للفجوات التي تعاني منها، سواء على مستوى التنظير اللساني والسوسيولساني، أو على مستوى المعجم، أو على مستوى التعليم والتعلم، أو على مستوى الحوسبة، أو على مستوى الاستخدام اللغوي عموما، فإنه لا يمكن تحقيق الكفاية الوظيفية المأمولة من استخدام اللغة العربية معلوماتيا؛ من قبيل: التواصل والتراسل عبر الوسائط الإلكترونية وعبر شبكات التواصل الاجتماعي، والحوار عن قرب وعن بعد، والنشر الإلكتروني، والبث الإعلامي، والبحث المعلوماتي...، ولا يمكن بالتالي تجاوز التباين بين اللغة التصورية المفترضة في المعاجم والكتب، واللغة الواقعية المستخدمة في الفضاء التكنولوجي والمعلوماتي.

٢- شبكات التواصل الاجتماعي وأشكال التأثير على الهوية اللغوية العربية

الهوية واللغة عنصران مترابطان، يتفاعلان في السلوك الفردي والاجتماعي داخل الدولة والمجتمع، ويؤثر كل منهما في الآخر؛ قوة وضعفا، فإذا قويت اللغة قويت الهوية، وإذا ضعفت اللغة ضعفت الهوية. وعموما فقد فرض مصطلح الهوية نفسه باعتباره مصطلحا يحيل على العديد من الأبعاد الفلسفية والاجتماعية والنفسية. لذا تعددت حدوده حسب المجالات العلمية والمعارف. وإذا كانت مكونات الهوية متعددة فإن للغة حضورا قويا وحاسما في رسم معالمها وتخصيصها، قد يفوق أحيانا المكون الديني. لأن "قدر الديانة أن تكون حصرية أما اللغة فلا. يمكن أن نتحدث العبرية والعربية والإيطالية والسويدية في الوقت ذاته. ولكننا لا نستطيع أن نكون عبريين ومسلمين وكاثوليك ولوثريين"[٣]. بل الأكثر من ذلك فإن اللغة هي المحدد الرئيس للهوية الثقافية للفرد والجماعة. " الرجل يستطيع أن يحيا دون أية ديانة ولكن بالطبع ليس دون أية لغة"[٤]. وخلافًا لمسائل أخرى مرتبطة بالقومية والإثنية "فاللغة وحدها هي الأكثر التصاقًا بالذّات الفردية"[٥]. فالهوية كما يقول "حسن حنفي" تعبر عن نفسها في اللغة لإيصال رسالتها إلى الآخرين. فاللغة تعبيرٌ وإيصالٌ. ولا يوجد إلا هيدغر الذي قال إنّ اللغة منزل الوجود، فاللغة

توجد أوّلا، ثمّ يسكن الوجود فيها .. فالوجود هو الهُويّة ودلالته هي الماهيّة، واللغة هي الحامل لها والمؤثّر فيها(٦).

ترى بعض الدراسات السوسيولسانية المهتمة بدراسة العلاقة بين اللغة والهوية، أن الهوية تمثل وظيفة خاصة ومستقلة للغة إلى جانب الوظيفة الأدائية والتواصلية، فاللغة بنية حاملة للهوية أو لنقل هي نسق لترميز الهوية وبناء تمثلاتها(٧). لذلك نجد أن هذه الدراسات بدأت تربط بين التعدد اللغوي في مجتمع معين، وبين تعدد الهويات داخل نفس المجتمع. "لا يمكن فهم هذه التحولات إلا داخل سياق كوني يشهد تراجع الإيديولوجيات الكبرى وبالتالي تراجع دور الدولة السيادية أو الدولة الأمة .. مما يؤدي إلى انشطار أو إضعاف الهويات المركزية. يمكن أن نقول إن مفهوم الهوية الجامعة أو الوحدة الثقافية بدأ يتراجع تدريجيا لصالح مفهوم الحق في الاختلاف والتعدد ومنطق الهويات الثقافية"(٨).

في هذا الإطار يمكن الحديث عن وجود بوادر أزمة داخل الهوية اللغوية، أزمة ناتجة عن صراع بين قيمتين: قيمة اللغة العالمية، بوصفها وسيلة لتواصل شامل، وقيمة لغة محلية يعدها أصحابها خزانا لأشكال ثقافية من التمثل. وقد يؤدي ذلك إلى فك الارتباط بين مفهوم الهوية وبين مفهوم اللغة، مما يفسر بروز اتجاهات عالمية تدعو إلى ما يسمى بتدويل التعليم، وإخضاعه لسلطة اللغة المهيمنة، خصوصا اللغة الإنجليزية على حساب اللغات المحلية والإقليمية.

إن اللغة – خصوصا إذا تعلق الأمر باللغة الوطنية أو القومية – ليست مجرد آلية تواصلية، بل هي نظام من العلامات والرموز الدالة على الفكر، أي أنها تعكس الإنجازات الفكرية والثقافية لمتكلميها، وبصيغة أدق؛ اللغة هي الصورة التي يتمثل فيها تفكير الأمة ورؤيتها للعالم والوجود، ولذا لم يكن يتصور وجود الإنسان بدون كلام، إذ بين الوجود والعدم الكلام(٩). فاللغة هي الهوية الوجودية قبل الجماعية. واللغة كذلك هي قدرة تمكن من الإبداع وحمل المعرفة وإنتاجها..، لذا ينتظر من كل متكلم طبيعي للغته أن يبدع بها ويحملها معارف مختلفة حتى تصير لغة المعرفة. وتحميل اللغة بالمعرفة أساس بناء المجتمع، كما أن بناء هذا المجتمع يهيئ اللغة لتضطلع بوظائفها كاملة، وتساهم في تنمية الإنسان لغويا وتواصليا ومعرفيا(١٠).

عندما يشرع الدارس في تحليل وضعية اللغة والهوية من زاوية معلوماتية، فإنه سيدرك منذ البداية مدى تعاظم أهمية اللغة في مجتمع المعلومات واقتصاد المعرفة، حيث تجاوز دور اللغة الجوانب التقليدية المتمثلة في التواصل والثقافة والتعليم..، إلى أبعاد أخرى متعددة كشف عنها المتغير المعلوماتي، وذلك على مستويات متعددة؛ سياسية واقتصادية وأمنية، وأخرى مرتبطة بالتنمية المعلوماتية وبالتقدم العلمي والتكنولوجي. لذلك فإن التصدي للفجوة اللغوية هو نقطة البداية التي علينا أن ننطلق منها، "ولا نبالغ بقولنا إن مصير الشعوب قد أصبح رهينا بمصير لغتها القومية، وقدرة هذه اللغة على الصمود في بيئة لغوية عالمية زاخرة بالتحديات، وعلى أن تتواءم مع تواصل إنساني غاية في الاتساع والتنوع، تواصل ما فوق اللغة وقد اندمجت مع أنساق التعبير الرمزية الأخرى من أشكال وأصوات، ولا بد أن نضيف هنا لمسة الذكاء الاصطناعي المتمثلة في تواصل الإنسان في حواره مع الآلة، وتواصل الآلة في تفاعلها مع غيرها من الآلات. إن اللغة – كما قيل – هي الوجود ذاته، وقد أصبح هذا الوجود مرتبطا بثقل الوجود اللغوي على شبكة الإنترنيت"(١١).

لم تتوقف اللغة في هذا الواقع التواصلي والمعلوماتي الجديد عند حدود الوظيفة التواصلية، وإنما غدا للشأن اللغوي من الكثافة الرمزية ما جعل عموم المتكلمين ينظرون إلى لغاتهم بمعيار الاعتبارات الرمزية فقط، إلى درجة أنه استقرت في أوساط الباحثين مقولة استعارية متواترة مفادها؛ نهاية الجغرافيا وعودة التاريخ. وأساس ذلك أن اللغة مستودع كل الرمزيات، والمستحوذة على كل اعتبارات المعنى، وبهذا الاعتبار يستقطب الشأن اللغوي كل أشكال الصراع الرمزية والهوياتية اليوم. ولذلك اختزل بعض الباحثين هواجس المسألة اللغوية في مصطلح "الأمن اللغوي"، وهو مستوى من الأمن يختزل كل أشكال الأمن الرمزية والهوياتية الأخرى ويستقطبها، إذ إن الكيانات التي لم تتحصن لغويا هي كيانات مهددة في عمق ثقافتها وهويتها.

من هنا أصبح سؤال الهوية – فردية كانت أم جماعية – مطروحا بشدة، وأصبح قلق الشعوب على مصيرها متعاظما، محاولة بذلك البحث عن إجابات لأسئلة من قبيل: من نحن؟ وأين تكمن العلاقة بين هويتنا ولغتنا؟ وما حدود التماهي بين اللغة والهوية؟ وكيف لنا أن نؤمن لهويتنا اللغوية موقعا حصينا على الخريطة الجيولسانية والسوسيولسانية التي تموج بالتيارات

اللغوية والثقافية والهوياتية العاتية؟ وأخيرا كيف السبيل للصمود إزاء عولمة لغوية تعمل على تفكيك الهويات الثقافية من منطلق الهيمنة اللغوية والسيطرة المعلوماتية؟

يرى "نبيل علي" في كتابه "الثقافة العربية وعصر المعلومات" – بخصوص تعاظم دور اللغة العربية في عصر المعلومات – أننا نعاني حالة مزمنة من غياب إرادة الإصلاح اللغوي في علاقته بالتنمية المعلوماتية، وبتنا بالتالي نشكو من أزمة لغوية حادة، جاءت تكنولوجيا المعلومات لتضيف إليها بعدا فنيا متعلقا بمعالجة اللغة العربية آليا بواسطة الكمبيوتر، وهذا ما حرمنا من الانضمام إلى نادي المعلومات العالمي. ويضيف أن هناك قناعة راسخة بأن تكنولوجيا المعلومات بما توفره من وسائل عديدة في المجال اللغوي، تتيح فرصا عديدة لانتشال العربية من أزمتها الراهنة، لذلك لابد من وجود لغة عربية متطورة تكون درعا لنا لمواجهة الإعصار المعلوماتي الجارف(١٢).

إن وجود لغة عربية متطورة يمكن أن يشكل كذلك جسرا للتواصل وتوحيد المفاهيم بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، كما يمكن أن يكون جسرا لنقل التكنولوجيا والثقافة المعلوماتية وتوطينها في التربة العربية. فهناك قاعدة تقول أن كل من يقوم بتسويق لغته بفعالية أكبر لن يواجه صعوبة في تسويق منتجاته وثقافته. أما إذا بقيت اللغة العربية عاجزة عن التطور، عاجزة عن الانخراط في منظومة تكنولوجيا المعلومات والتواصل، فإنها ستكون هي ذاتها عائقا أمام اللحاق بركب المعرفة الإنسانية، وأمام تنمية الحوار الثقافي والحضاري العالمي، وحاجزا اجتماعيا للتواصل بين الأفراد والجماعات.

ومن جانب آخر فإن تحقيق التنمية المعلوماتية والمعرفية العربية المنشودة، يتطلب الوقوف عند بعض الإشكالات اللغوية الجديدة التي أصبحت تفرض نفسها على المشهد اللغوي العربي، بفضل الانتشار الكبير والواسع لشبكات التواصل الاجتماعي، والتي أصبحت تهدد بشكل صريح منظومتنا اللغوية والهوياتية، تتلخص أبعاد هذه الإشكالات في ظهور ما يسمى "باللغة الشبابية الجديدة على الإنترنيت"، أو ما يسمى "باللغة الإنترنيتية"، هذه اللغة عبارة عن تشكيل من خليط من اللغات (العربية الفصحى والعاميات والفرنسية والإنجليزية)، بالإضافة إلى جملة من الأرقام والرموز والرسومات. واستعمال هذه اللغة يعتبره مستخدمو شبكات التواصل الاجتماعي أمرا طبيعيا بل منطقيا، لسهولتها ووضوحها، بالإضافة إلى سرعتها وميلها إلى الاختصار عند

كتابة الرسائل قصد التواصل أو للتعليق على المعلومات، ولتضمنها كذلك مصطلحات خاصة ومختصرة يتداولها الشباب فيما بينهم على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم التعليمية والثقافية، وهو الأمر الذي تحبذه – كذلك– التكنولوجيا التواصلية الجديدة لجعل عملية إرسال وتلقي المعلومات أكثر سرعة وفعالية. وبذلك غابت اللغة العربية السليمة والصحيحة عن شبكات التواصل الاجتماعي إلا فيما ندر، وتحولت إلى خليط غير متجانس من الأرقام والرموز والألفاظ والعبارات المكتوبة بحروف لاتينية في أغلب الأحيان. وهكذا أصبحنا نسمع بمصطلحات مثل: "العرنسية" أو "الفرانكو أراب"، و"العرنبيزية" أو "الأنجلوعربية". والنتيجة أن الهوية اللغوية العربية باتت مهددة بشكل صريح، وبات معها انتشار اللغة العربية الصحيحة على مستوى شبكات التواصل الاجتماعي أمرا صعبا للغاية مع وجود هذا الوضع اللغوي الجديد واستحواذه على مختلف مجالات التواصل بهذه الشبكات، في مقابل إفساح المجال للترويج للغات أجنبية أخرى، مثل: الإنجليزية والفرنسية ...

إن هذا الاستخدام السلبي للغة العربية في شبكات التواصل الاجتماعي لا يشكل خطرا على اللغة العربية فحسب، بل على الهوية الوطنية والقومية للفرد العربي بشكل عام، لأن آثاره انتقلت من العالم الافتراضي إلى العالم الواقعي، ودليلنا على ذلك الضعف الكبير الذي أصبح يعاني منه كثير من شبابنا؛ بل حتى بعض مثقفينا وأكاديميينا، على مستوى التمكن من مهارات اللغة العربية وقواعدها. ويظهر ذلك من خلال طبيعة المحادثات والكتابات سواء في المؤسسات التعليمية، أو في بعض المناسبات الأكاديمية والإعلامية، والتي يغيب فيها توظيف ضوابط وقواعد اللغة العربية الصحيحة، لتحل محلها تعابير ركيكة ولغة مشوهة متنا ومعجما ونحوا وتركيبا بل وحتى أصواتا في بعض الأحيان، كما يغيب فيها التمثل السليم للأبعاد الثقافية والهوياتية للغة العربية، ويغيب بالتالي الوعي بالذات والوعي بالانتماء إلى الجماعة، على اعتبار أن اللغة العربية هي أساس الهوية الثقافية القومية، أو كما قال "محمد عابد الجابري": "هي اللغة المشتركة بين جميع أبناء الأمة العربية (...) والرابطة المتينة التي توحد بين مستويات الهوية في الوطن العربي (...) وأيضا الأداة الوحيدة التي بها يمكن للعرب الدخول في العالمية وتحقيق الحداثة"(١٣).

خاتمة

لقد أحدثت التطورات التكنولوجية الحديثة نقلة نوعية وثورة حقيقية في عالم الاتصال والتواصل، حيث انتشرت شبكة الإنترنيت ومواقع التواصل الاجتماعي في أرجاء المعمورة كافة، وربطت أجزاء العالم المترامية بفضائها الواسع، ومهدت الطريق للمجتمعات كافة للتقارب والتعارف وتبادل الآراء والأفكار والرغبات، واستفاد كل متصفح لهذه الشبكات من الوسائط المتعددة المتاحة فيها.

ولقد أحدثت شبكات التواصل الاجتماعي نقلة نوعية في العلاقات والتفاعلات الاجتماعية واللغوية، حيث تعد دراسة الإنترنيت وشبكات التواصل الاجتماعي وتأثيراتهما اللغوية والهوياتية على مستوى الفرد والمجتمع العربي مطلبا مستمرا في ظل ما يموج فيه المجتمع المعاصر من تغيرات متلاحقة.

ويعد الضعف اللغوي في وسائل التواصل الاجتماعي وتأثيره على الهوية اللغوية للفرد العربي واحدة من القضايا التي دار ومايزال يدور حولها جدل كبير نتيجة للتغيرات والمستجدات التكنولوجية والسوسيولسانية في العصر الحديث، ولا سيما مع تنامي موجات العولمة بشقيها اللغوي والثقافي، وما رافقها من تطورات هائلة في مجال تكنولوجيا المعلومات والتواصل، وما أحدثه ذلك من تأثير في نسق ونظام اللغة العربية الصحيح والفصيح بشكل عام، وفي الخطاب اللغوي والهوياتي للأفراد والمجتمعات العربية بشكل خاص.

هوامش البحث ومصادره:

(1) Millan,N,&Bromage,A . **An initial Approach to the integration of web 2 . 0 Technologies in the Research Environment.** *Interactive Technology and Smart Education* .VOL 8. ISSUE 1. PP. 148-160.

(٢) نبيل علي ونادية حجازي، "الفجوة الرقمية؛ رؤية عربية لمجتمع المعرفة"، **عالم المعرفة**، الكويت، ٢٠٠٥، ص: ٣٢-٤١.

(٣) أمين معلوف، **الهويات القاتلة: قراءات في الانتماء والعولمة**، ترجمة نبيل محسن، الطبعة الأولى ، دمشق، دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩، ص: ١١٧

(٤) أمين معلوف، المرجع نفسه. ص: ١١٧

(5) Victor Ginsburgh & Shlomo Weber, "**Culture, Languages, and Economics**", to appear In: *Handbook of the Economicsof Art and Culture*, Amsterdam: Elsevier, 2011, p: 47 .

(٦) حسن حنفي، الهوية والاغتراب في الوعي العربي، **مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية**، المجلد الأول، العدد الأول.صيف ٢٠١٢. ص: ١٠

(٧) جون جوزيف، اللغة والهوية: قومية-إثنية- دينية، ترجمة د.عبد النور خراقي، **سلسلة عالم المعرفة ٣٤٢**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أغسطس ٢٠٠٧، ص: ٤٢

(٨) رشيد السعدي، **إشكالية الهوية ولغات التعليم في المغرب، من مأزق الانفصام إلى استراتيجيات التحول**، المغرب ، أفريقيا الشرق، ٢٠١٥، ص: ٢٧

(٩) عبد السلام المسدي، **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، تونس، ١٩٨٦، ص: ٥٥

(١٠) فؤاد بوعلي، **مقاربات في المسألة اللغوية بالمغرب**، طوب بريس، الطبعة الأولى، الرباط، ٢٠١٥،ص: ١٠٥

(١١) نبيل علي، نادية حجازي، الفجوة الرقمية؛ رؤية عربية لمجتمع المعرفة، **عالم المعرفة**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،٢٠٠٥،ص: ٣٠٦

(١٢) نبيل علي، **الثقافة العربية وعصر المعلومات**، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠١، ص: ٢٣٦

(١٣) محمد عابد الجابري، **العولمة والهوية الثقافية:** عشر أطروحات، المستقبل العربي، عدد ١٩٩٨،٢٢٨، ص: ٢

المراجع

العربية

١. بوعلي فؤاد، مقاربات في المسألة اللغوية بالمغرب، طوب بريس، الطبعة الأولى، الرباط، ٢٠١٥.

٢. الجابري محمد عابد، العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات، المستقبل العربي، عدد ١٩٩٨،٢٢٨.

٣. جوزيف جون، اللغة والهوية: قومية-إثنية- دينية، ترجمة د.عبد النور خراقي، سلسلة عالم المعرفة ٣٤٢، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس ٢٠٠٧.

٤. حنفي حسن، الهوية والاغتراب في الوعي العربي، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية، المجلد الأول، العدد الأول. صيف ٢٠١٢.

٥. السعدي رشيد، إشكالية الهوية ولغات التعليم في المغرب، من مأزق الانفصام إلى استراتيجيات التحول، المغرب ، أفريقيا الشرق، ٢٠١٥.

٦. علي نبيل، الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، ٢٧٦، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر ٢٠٠١.

٧. علي نبيل ونادية حجازي، "الفجوة الرقمية؛ رؤية عربية لمجتمع المعرفة"، سلسلة عالم المعرفة، ٣١٨، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس ٢٠٠٥.

٨. المسدي عبد السلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، تونس، ١٩٨٦.

٩. معلوف أمين، الهويات القاتلة: قراءات في الانتماء والعولمة، ترجمة نبيل محسن، الطبعة الأولى ، دمشق، دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩.

الأجنبية

10. Millan,N,&Bromage,A . **An initial Approach to the integration of web 2 .0 Technologies in the Research Environment**. *Interactive Technology and Smart Education* VOL 8. ISSUE 1. PP. 148-160.

11. Victor Ginsburgh & Shlomo Weber, "**Culture, Languages, and Economics**", to appear In: *Handbook of the Economicsof Art and Culture*, Amsterdam: Elsevier, 2011, p : 47 .